العلم الحديث والعمران

للأستاذ نقولا الحداد

يقوم عمران البلاد على نتاج العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية ، ودماره يقوم على هذه أيضاً .

المدنية الغربية الحديثة هي مجموعة الاختراعات المادية العملية العجيبة التي أثمرها هذا العقل الإنساني القدير في القرن الماضي ونصف الحاضر مستندة إلى العلوم الرياضية والطبيعية ومقترنة بتوسع الشؤون الاجتماعية من اقتصادية وسياسية وصحية .

وأسوأ مساوئ هذه الاختراعات التي تعاظم شأنها مع تقدم العلم أنها كانت أفعل العوامل في تقويض العمران وإطفاء نور المدنية . فما ابتكرته هذه المدنية الحديثة من علم واختراع كان مقوّضاً لأركانها وهادماً لبنيانها . وقد يكون في المستقبل العامل الوحيد لفنائها « كدودة القز ما تبنيه يهدمها » .

سطعت هذه المدنية الغربية حتى غلف ضياؤها سطح الكرة الأرضية ، وكادت تغمر النوع الإنساني بلوامع السعادة والهناءة ، لولا ما اعتورها من غياهب النزعات السياسية والاقتصادية ، فكانت هذه النزعات تثير ثورات الشعوب والأقوام بعضها على بعض فتطفئ تلك اللوامع بألوف منتجات الكيمياء والبخار والكهرباء التي تمتع بها العالمان القديم والجديد مما يعلمه كل إنسان وبألوف تلك المنتجات وما أضافته عقول الحرب إليها يتدمر الآن عمران العالم كله . لذلك يقول بعض قصار النظر: « لا كان العلم والاختراع ولا كان هذا الدمار » .

وقد خفي على هؤلاء أن الذنب ليس ذنب العلم والاختراع ، وإنما هو ذنب هذا العقل الإنساني العجيب الذي ابتدع هذا العلم بالأرضي الباهر ، ولم يبتدع إلى جنبه خلقاً سماوياً ساطعاً .

لهذا أمكن جيش الشياطين والأبالسة أن يغزو ملكوت الإنسان ويفتحه ويستتب فيه ويملكه . فليس الذنب ذنب العلم ، بل هو ذنب النفس الأمارة بالسوء ، أصلح النفس وطهرها فيطهر العلم من عوامل الشر ويعمل للخير وحده . ما ذا كان نصيب الشرق من هذه المعمعة التي التحم فيها العقل المبدع والنفس الأمارة بالسوء .

كان أن الشرق سرق من فردوس الغرب بعض ثمار علمه وشاركه بالتمتع بها ولكنه لم يشاركه في فلاحة ذلك الفردوس وزراعته . على أنه لما جاء دور التدمير أصاب الشرق ما أصاب الغرب من ويلات التدمير . وأقل ما مني به الشرق أنه ازداد عبودية للغرب في السياسة والاقتصاد وغيرهما ، وبالتالي أصبحت سعادته الحيوية متوقفة على الفضلة الفاضلة من سعادة الغرب . وهذا الفقر في السعادة جزاء ذلك الفقر في العلم . وكيف يمكن أن تغتني بالسعادة ونحن لم نشترك مع الغرب في تحصيلها بل نسرق فضلاتها منه ؟

لا يمكن أن نرفع عن رقابنا نير العبودية للغرب إذ لم نباره في العلم العملي والاختراع والاصطناع . لو كان لنا علم وقوة اختراع وأمكننا أن نخترع الطيارة واللاسلكي والبارجة والغوّاصة ، إلى غير ذلك مما لا يحصى من الاختراعات لاستحال على الغرب أن يستعبدنا وأن يبتذ ثروتنا وأن يزعزع كياننا وأن ينغص عيشنا .

أخذنا العلم الحديث عن الغرب فلا حرج ، ولا عيب أن نقتبس العلم منه . الغرب اقتبس قبلنا من الشرق . ولكن أية فائدة عمرانية استفدنا من هذا العلم ؟ هل استفدنا منه أن نخلص من الاتكال على الغرب ؟ هل استطعنا أن نستقل عمرانياً أو اقتصادياً على الأقل؟

منذ بُني خزّان أسوان إلى اليوم ونحن نتحدث عن توليد الكهرباء منه . واصطناع السماد بواسطتها فلماذا لم نولّدها ؟ — ليس ذلك لأنه لا يوجد عندنا رأس المال اللازم لهذا العمل العظيم ، ولا لأن الحكومة عاجزة عن تقديم المال ، ولكن ليس عندنا مهندسون كهربائيون يجرؤون أن يقدموا على هذا العمل أو يوثق بكفايتهم . وليس عندنا الآلات والأدوات اللازمة لهذا العمل ولا مصانع لها عندنا . ولذلك نعرض المشروع على المهندسين الأجانب مضطرين . فإذا لم يتفق الأجانب معنا على هذا المشروع لا يتكهرب خزان أسوان . وقس عليه كثيراً من المشروعات الاقتصادية العمرانية الكبيرة التي نحن محرومون منها لقصور فينا . إذاً فماذا استفدنا من العلم الذي اقتبسناه ؟ ما استفدنا إلا أن شبابنا حصلوا على بعض الثقافات الفنية العملية التي تمكنهم من الارتزاق

فقط . ولـكن بعـد الحصول على وسائل الاسترزاق لم يستمر المتثقفون فى طلب المزيد من العـلم بعد الحصول على الدبلوم التى توصل إلى حرف الارتزاق . قلما نرى مثقفاً يستمر فى الدراسة بغية الاستزادة من المعرفة ، ولا نرى مثقفاً قصد البحث فى العلم بغية اكتشاف نظرية علمية أو استخراج حقيقة جديدة . والأرجح أن معظم الذين تخرجوا وغنموا الشهادات التى تخولهم حق العمل لم يعودوا يفتحون كتاباً لترويض عقولهم وتوسيع معارفهم لـكى تحفز أذهانهم للبحث والتفكير والاستنباط .

أكسلا كان هـذا الإهمال أم عجزاً أم ضعفاً عقليا ام قلة ثقة بالنفس وتمادياً فى الاتكال على الغرب ؟

فلقلة اكتراث المثقفين بالمطالعة لا نرى فى مطبوعاتنا اليومية إلا النزر اليسير من المؤلفات العلمية المفيدة التى تحتوى على كل ما استجد من الحقائق العلمية ، وكل يوم تظهر معلومات جديدة فى العلم . ولـكن الذين كانوا فى معاهد العلم قبل ظهورها لم يقفوا عليها لأنهم لم يجدوها فى مطبوعاتنا الجديدة . وإذن فـكأنهم لم يثقفوا الثقافة التامة .

لا نرى من المطبوعات الجديدة عندنا واحداً فى المائة حتى ولا واحدا فى الخمسمائة من المؤلفات العلمية التى تلم بكل جديد من العلم . لا نرى إلا مئات المؤلفات فى الأدب والقصص واللغة والتاريخ الخ . ولـكن بكل أسف لا تقوم المدنية على الأدب . ولولا ما نقتبسه من علم الغرب لـكنا بلا مدنية عصرية نجارى بها العالم .

الأدب ليس قوام المدنية وإنما هو حلية لها . فاذا كانت المدنية مزينة بأجمل الحلى وأثمن الجواهر ولـكن على بدنها لطمار الجهل العلمى فهل نقول إنها حسناء رائعة الجمال ؟

وكيف تحيا وتترعرع وهى بدن سقيم وجسم ضعيف . وكيف يبدو جمالها وهى لاقلب ولاروح . ليس بالقصائد والقصص وروائع الأدب اخترعت الطيارة والسيارة واللاسلكى والسينما والطبيعة إلى غير ذلك من ألوف الاختراعات التى يتمتع بها البشر الآن . الأدب وحده لا يبنى مدنية أو عمراناً بل هو ثانوى فى بناء العمران وإنشاء المدنية .

بكل أسف نقول إن الأدب طغى عندنا على العلم حتى كاد يخنق هذا وراء النيوم ، ولم يعد المثقف وقليل الثقافة يرى فى سوق الطباعة إلا قليلاً من الأدب الجميل وكثيراً من الأدب السخيف . فكيف يمكن أن تكون لنا مدنية ذاتية خاصة بنا وغير مستعارة وغير مزيفة ؟

لسنا فقراء فى رجال العلم . ولـكننا فقراء فى قرّاء العلم حتى من المثقفين ، وأغنياء بقراء الأدب الفـكاهى وبقليل من الأدب الراقى الصافى . ولذلك قلّ الذين يؤلفون فى العلم ويقدمون لنا ثمرات العلم الحديث .

لولا بعض المجلات التى تعنى قليلاً بطرائف العلم الحديث ، ولولا بعض المؤلفين الذين أغرموا بالمطالعة والتأليف والنشر لـكان عندنا قحط علمى يُعنّون مدنية زائفة .

جيدا لو أمكن إحصاء اقبال القراء على المؤلفات العلمية ذات القيمة لـكى نعلم هل نحن جادون فى التقدم العلمى ، وأن هذا التقدم يبشرنا بأننا مقبلون على مساهمة الغربيين فى الانتاج العلمى والاختراع والاكتشاف لـكى نستبشر بالاستقلال العمرانى الحقيق وعدم الاضطرار إلى الاتـكال على الغرب فى بنيان مدنيتنا .

إذا عرفنا أن للمؤلفات العلمية ونحوها إقبالاً من القراء كبيراً عرفنا أننا نبنى عمراننا وليس الغربيون يشيدونه . هل يأتى من وسيلة لهذا الاحصاء لـكى نعلم فى أية درجة نحن من التقدم العلمى ؟

نقولا الحداد

يصدر قريباً كتاب

دفاع عن البلاغة

بقلم

أحمد حسن الزيات